الشاعر الشعبي الجزائري عبد الله بن كريو "حياته، ثقافته، شعره"

الأستاذ: بن مرزوق عبد الوهاب
جامعة يحي فارس بالمدية

إنَّ المتبصر في تراثنا الشعبي يجده غنيا جدا بالإبداعات الثقافية والأدبية، فهذا التراث لا شك أنه من صنع عامة الشعب، وهذه العامة بدورها تشغل حيزا كبيراً من المجتمع إن لم نقل جله، وبهذا فإن لهذا الأخير دورا كبيرا في تأدية واجب التثقيف للأجيال والذود عنهم في وجه العدو والتعبير عن انشغالاتهم وإيصال أحاسيسهم وأفكارهم إلى غيرهم.

والشعر الشعبي واحد من هذا التراث والموروث الثقافي والأدبي، فقد عبر من خلاله الشعراء عن انشغالاتهم وهمومهم وما تجود به قرائحهم، فنجده أدى رسالته كاملة لما طوقت الفصحى والشعر الفصيح خاصة وذلك من طرف الاحتلال الغاشم، فكان له ولناظميه دورهم البارز والجلي في شغل مكان الشعر الفصيح وفصحاء الشعراء.

فالشعر الشعبي إذن "هو كل شعر خالفت لغته اللغة الفصحى في الإعراب أو الصرف أو المعجم"[1]

ومن هذا التعريف نستخلص أن الشعر الشعبي ينظم بلغة العامة وهي غير مقيدة بحركات الإعراب وبعض قواعد اللغة إذ نجد فيه اللحن بمعنييه. الأول غياب الإعراب والثاني معنى الغناء وهذا ما يؤكده لنا الشاعر الشعبي ابن قيطون في قوله:

مانشكرش الباي
جدد ياغناي
بنت أحمد بن الباي
شكري وغنايا

ويقول كذلك محمد المرزوقي:

"الشعر الشعبي لا يختلف في شيء عن الشعر الفصيح إلا في الإعراب لأن لغتنا الشعبية التي هي لغة هذا
الشعر عربية دخل عليها –بتطاول الأزمان –اللحن ونطقتها ألسنة العامة محرفة فنظم بها"[2]. كما أننا نجد تسميات مختلفة لهذا النظم وذلك حسب الرقعة الجغرافية أو الباحث في هذا المجال إذ لكل رأيه في ذلك وحجته على التسمية التي يتبناها ومن هذه الأسماء الشعر الشعبي، العامي، الملحون، الزجل، البدوي، النبطي...الخ.

والمتأمل في حياة شعراء الشعر الشعبي يكتشف أنهم أُناس وهبوا حياتهم للعلم والمعرفة وحفظ القرآن الكريم ورواية الحديث وحفظ الأشعار وتأثرهم بجل الصناعات وتناولهم لبعض القضايا التي يتناولها شعراء الفصحى وهذا ما لمسناه في شعرهم أو في تراجم حياتهم. فهذا الشاعر مصطفى بن إبراهيم يقول فيه عبد القادر عزة: "ولي القضاء ثم عينته الإدارة الفرنسية في منصب خليفة، ثم قائدا على فرع أولاد سليمان، وكانت تشمل منطقتهم أبي جبهة ووادي المبطوح وتيلوين والزفيزف"[3]

وأما الشاعر عبد الله بن كريو فقد كُلف بالقضاء، وحَفظ القرآن، ونهَل من جل العلوم، وهذا ما نستشفه من شعره، أضف إلى ذلك الشاعر سيدي الأخضر بن خلوف " الذي كان رجلاً يمتلك سلطة دينية مؤثرة على قومه حتى جعلوا منه ولياً صالحاً"[4] وهذا ما يبين أن الشاعر كانت له ثقافة دينية وروحية استطاع من خلالها أن يكسب شخصيته الدينية المقدسة بين أهله ومعارفه، بالإضافة أيضا إلى الشاعر الفذّ الشيخ السماتي الذي يقول عنه أحمد الأمين:" في سن مبكرة سلمه أبوه إلى الزاوية المختارية ليحفظ القرآن وليتفقه في الدين، وكان شيخ الزاوية آنئذ الشيخ محمد الصغير بن المختار الذي سيصبح شيخاً وصديقاً لشاعرنا[5] ومن هذا يتبين لنا أن الشيخ السماتي وبحكم اتصاله بالزاوية القرآنية حفظ القرآن وعلوم الدين كالتوحيد والفقه وغيرها وما يؤكد ذلك علاقته الحميمة مع شيخ الزاوية[6].

وبالإضافة إلى هؤلاء جميعا نجد كذلك الشاعر سعيد المنداسي الذي كان يتقن اللغة العربية اتقاناً جيداً بل كان يذود عنها ضد من يطعن فيها كما نجده ينظم بالعامية والفصحى في الوقت نفسه، دون أن ننسى الشاعر بن مسايب وبن شهرة وبن يوسف، وغيرهم كثيرون ممن رفعوا التحدي وأسسوا القواعد الرئيسية للشعر الشعبي الجزائري، وبينوا مدى عراقته وأصالته باللغة العربية الفصحى.

الشاعر عبد الله بن كريو

"هو عبد الله بن محمد بن الطاهر بن النوى وأمه أم النون بنت أحمد بن نعيمة ينتمي والده إلى عائلة عريقة بالأغواط تعرف بأولاد التخي"[7] واشتهر الشاعر بابن كرِّيو –بتشديد الراء وكسرها وتسكين الواو–، ولد سنة **1871**بمدينة الأغواط، وبها ترعرع وحفظ القرآن وقد تتلمذ على شيوخ عدة منهم والده محمد بن الطاهر ومحمد بن العربي والشيخ بن الدين وسي البشير بن الحاج والطاهر القسنطيني.

كما أنه قام برحلات عدة منها إلى مدينة المنيعة، عندما نفته السلطات الفرنسية على خلفية تأليب السكان ضدها، وبعدها رحل إلى غرداية وبريزينة كما أنه اشتغل بالقضاء كباشا عدل بحكم أن أباه كان قاضيا، أما زواجه فقد تزوج بأربع نساء وهذا بعد سنة **1913** أي بعد وفاة حبيبته فاطمة التي لم يسعه الحظ للزواج منها وكلهن لم ينجب منهن بل طُلقن إلا الزوجة الرابعة فأنجبت بنتين، هما أم الخير وفاطمة التي سماها باسم محبوبته أما عن أصدقائه فنذكر منهم القاضي جودي المبروك والشاعر أحمد بن يعيلش والقاضي بن بيطار وصديقه على بن الطيب والجودي عيسى بن محمد وغيرهم. وكان الشاعر معروفاً بمواقفه الشجاعة ضد الاستعمار الفرنسي، ورفض أن يكون شاعر بلاط، بل كان له موقفاً

مشهوداً لَمَّا رفض أن يَنْظمَ شعراً يمدح فيه فرنسا إبان الحرب العالمية الأولى، وقد أنكر على صديقه ابن بيطار لما قامت السلطات الفرنسية بالجزائر بجعل مكافأة مالية قدرها**500**فرنك من الذهب لمن يقوم بمدح الجيوش الفرنسية في حربها ضد الألمان وقد قام بهذا الدور صديقه بن بيطار وكان عبد الله بن كريو آنذاك ضد الاستعمار وجبروته فأنكر على صديقه ذلك العمل القذر.

أصيب الشاعر في آخر أيامه بالعمى والسبب في ذلك يختلف من رواية لأخرى فمن سقوطه من أعلى السطح إلى مؤامرة استعمارية، المهم أنه أصيب بالعمى وهذا يتضح في شعره حيث يقول:

تشاكي الباري

تروح ذا الظلمة على بصري

ونعود كي بكري

ما درتها بيدي الموذيات

"وتقول الروايات بأنه كان يعرف الكيمياء وكان يصنع الذهب وقيل أيضا في أخريات حياته قد أحرق كل الكتب التي كانت بحوزته"[8].

توفى الشاعر في سنة **1921** عن عمر يناهز **50** سنة تاركا من وراءه إنتاجاً أدبياً ثميناً يفوق **30** قصيدة رائعة في الشعر الشعبي أغلبها في الغزل، وتصوير معاناته طيلة هذا العمر من الزمن إلا أنها لم يبقى منها إلاَّ القليل.

ويروى عنه أنه كانت له ثقافة واسعة حيث "يبدو لكلّ من يقرأ أو يسمع أشعار عبد الله أنَّ شعره متميز ويحمل ثقافة ليست في متناول أغلب الشّعراء فهو يمثل الطّبقة المثقّفة في وقته وتتنوّع مصادر هذه الثقافة بتنوع اهتمامات الشّاعر فضلاً عن تكوينه الشرعي فهو يحفظ القرآن، وبعض النّصوص والمدوّنات الفقهية، كمتن ابن عاشر والرحبية في المواريث وهو في الطّريقة القادرية كان يحضر دروس سيدي البشير بن الحاج في مسجد سيدي عبد القادر ومسجد الدراويش، وله علم بالتّصوف حيث تربَّى في عائلة عريقة في الطريقة القادرية"[9].

"كان عبد الله بن كريو بالإضافة إلى ثقافته الدينية التي أهلته لأن يكون قاضياً، كثير النظر في كتب التاريخ والأدب والفلسفة والعلوم وكان يملك مكتبة يقال بأنه أحرقها بنفسه بعد أن فقد بصره وساءت حالته المادية، وكانت مكتبته تحتوي على الكثير من أشعاره التي دونها بنفسه، وكان يرفض إذاعتها بين الناس[10].

فقد كان خبيراً بشتى العلوم والفنون وشغوف بالمطالعة و"لديلنا على أنه كان واسع الاطلاع، أشعاره التي تتضمن الكثير من التراث العربي الإسلامي كما أن لغته فريدة جداً، من لغة الشعر العربي القديم مما يدل على أنه كان يستلهم معانيه وصوره من هذا الشعر"[11].كان لابن كريو اهتمام كبير بالكيمياء، والفلك، والطب، والفلسفة، وهذا ما نستخلصه من شعره.

فقد جاء في قصيدة "جيت نوسع خاطري" ما يلي:

اطلعوا عنها اصحاب الكيميا

وجدوا فيها سر الاسباق والاسباب

ويقول ايضا في قصيدة الأزرق:

أسنانك در نضيف

لا تقيسه بمال

فايق من صنعه جابر

غيابه ضي البامر

وصنعة جابر نسبة إلى جابر بن حيان العالم المسلم الذي اشتغل بعلم الكيمياء في القديم.

وقد درس علم الفلك على يد الشيخ ابن الدين بن سيدي الحاج عيسى والشاهد على اهتمامه بهذا العلم وارد في شعره وذلك من خلال توظيفه لمصطلحات فلكية إذ يقول:

لاح بعينو شاف نجمة ضواية

كي برزت بنوارها من وسط سحاب

مامي في حيز النجوم المسمية

ولا يعرف تقويمها شاطر حساب

كل منجم دمشاتهم ذا الرؤية

بحثوا عن تعديلها واحد ما صاب

ويشير إلى الفيلسوف اليوناني أفلاطون في شعره وهذا ما يبين أن ثقافته واسعة وأنه نهل من كل العلوم إذ يقول في هذا الشأن معبرا بذلك عن "درته" ويقصد بها حبيبته إذ يقول:

من عهد أفلاطون كانت مخفية

دبرها من شاوعُمْرُو حتى شاب

ويشير كذلك إلى الفيلسوف المسلم ابن سينا وذلك في قوله:

ابن سينا شيخ في الطب حكاية

قال العشق إذا امكن ما لو تطباب

وهذا ما يدل على أن شاعرنا له اطلاع بالطب والحكمة عند ابن سينا. وكل ما سبق ذكره من علوم ونسبها إلى الشاعر جاء جلياً واضحاً في شعره، ومنه استلهمنا كل ما ذكرناه.

كما سجلت المرأة كزوجة أو محبوبة بصمتها في حياة بن كريو فالمتتبع لشعره يجد أن معظم قصائده لا تخلو من ذكر حبيبته أو معشوقته ولو بالإشارة والتلميح، فما أن تقرأ قصيدة من قصائده إلا وألفاظ الحب والعشق والغرام تغمرها، مثل قوله في قصيدة قاضي الحب:

جيتك رافع دعوتي يا قاضي الحب

واتغيث المضيوم داخل تحت حماك

لا تغبن مظلوم يتجلى هارب

جار عليه الحب مثلي وتعناك

عيني شافت ريم كطاح المغرب

كما شفته شافني منيشي شاك

بالوميه ناديت له لي وجب

كي كلمته قال لي فامم معناك

فابن كريو كان متيماً بمحبوبته إلى حدٍ كبير فقد شُبه حبه بالحب العذري عند امرئ القيس وقيس بن الملوح وجميل بثينة، أما محبوبته فهي فاطنة الزعنونية أباها الباشاغا الشيخ علي بن أحمد بن سالم، فقد كانت بينهما علاقة ود ومحبة وكانا يتبادلان رسائل العشق ويطَّلعان على قصص وأشعار العشاق والمحبين من عيون التراث العربي، وكانت علاقتهم جيدة إلاَّ أن شاع خبر حبهما وسمع بذلك الباشاغا علي بن أحمد بن سالم فذُعر لِمَا سمع عن ابنته وأراد أن ينتقم من ابن كريو شر انتقام، غير أن ابن كريو طلب يد فاطمة من أبيها إلاَّ أنا هذا الأخير رفض، بحكم إذا تزوجت ابنته من هذا الرجل شاعت الفضيحة وتدنس شرفه، فضاق الأمر بشاعرنا واشتد به الوجد، وأُقفِلت عليه كل المنافذ، غير أنه لم يستسلم وظل ينشد حبه ويستنهض جاه أولياء الله الصالحين قائلا:

ما نقطع لياس من الأيام اطوار
نرجى وقتا فاتني يستناني
يابركة عيسى الشاعر ع المختار
واللي عمر فاس سيدي التيجاني
واللي كل نهار تاتيهم زيار
مولى مليانة وسيدي البركاني
يا بركة من طوع الصيد الزمار
بن عودة ورفاقته والجيلاني
والصلاح اللي مراكز في الأقطار
رجال الداله وسي القرني
ردوا قلبي للوطا يخطي الأوعار
قلت نتوب من الماحين بركاني
عبد الله في غرامها نظم الأشعار
ع المجحودة ما نسميها كاني

أما فاطمة فتزوجت من رجل آخر إلا أنها عانت معه أشد العناء فلم تبقى معه طويلاً وتوفيت، أما عبد الله فلم يجد من تعوضه في حبه لفاطمة، رغم أنه تزوج من بعدها أربع مرات إلا أنه لم ينجح في زواجه إلا أن وافته المنية سنة **1921**.

كما يعتبر بن كريو من أعمدة الشعر الشعبي الجزائري في زمانه وهو وحيد أقرانه من الشعراء آنذاك، إذ نظم قصائد كثيرة معبراً فيها عن آلامه ومعاناته وما يختلج في صدره وما يتأجج فيه من عواطف حب وود لمحبوبه وكره لأعدائه ونبذ للإستعمار الفرنسي ورجاء في تحقيق ما تصبوا إليه نفسه.

"يذكر الرواة أنَّ لابن كريو أكثر من مائة قصيدة ويزعمون أن ديوانه أحرقه لما أصيب بالعمى، وقيل ورثه تلميذه زوج ابنة عمه الشاعر دهينة بن الحاج عيسى، ويقولون أنه أوصاه بأن يحرقه عند وفاته"[12].

غير أن القصائد المتداولة في الكتب والمغناة لا تتعدى الثلاثين قصيدة، وتتناول هذه القصائد معظم الأغراض الشعرية الموجودة في الشعر العربي الفصيح إلاَّ أنَّ الغالب عليها غرض الغزل بحكم أن الشاعر أحب فتاة طوال حياته هذا ما جعله يصرف كل شعره لأجلها فنجده يقول في قصيدة "جيت نوسع خاطري": هذي درة في خزاين محضية وضياها يغني على البدر إذا غاب ويقول في قصيدة "والله ماني داري":

تحت القصة وشمة وضي رهاب
قمر النصفية في منازل سعوده
احواجبها تعراق نون كتاب
من سكة المجيدي حين يتوردوا

فالشاعر يصف محبوبته بالجمال الفاتن ويحدد سماته فيقول إنَّ على جبينها وشمة وهذا الوشم كان آنذاك للزينة وهذا ما نجده حاليا عند بعض العجائز، في عدة جهات من الوطن العربي وعندنا النساء الشاويات خاصةً ويقول عنها كذلك أنَّ جبينها وضاء أي يشع نوراً ويشبه القمر في منتصف الشهر.

كما نجد شاعرنا ينظم في الأغراض الأخرى غير الغزل كالرثاء عندما أحس بموت أمه فقد قال:

رعدا دندن شورا الأقواط يجلجل
كي لوح برقه على طرف سحابات
والدتي قلبي عليها راه اسل
وحشك ياتي يا حنينة بالتنهات

وقال كذلك يشكو من طول مرضه وألمه:

اعلي الاضرار طالت ياحزني
من نرقدش النوم من عيني سارح
ياخو ياماموش ضري عاجبني
في ضني راني من الدنيا رايح
عني لاتبكيش ياصاحب ضني
ما ينفع في الكتابة نوح النايح
أغصب لي يا طبيبي داويني
و يذا تنصح جيب لي كحل اللامح

ونجد فن الفخر وارداً كذلك في شعره في إفتخاره بمسقط رأسه وبنفسه عندما يقول:

أغواطي في نسبتي قديم بلاتفخار
وجدودي حطوا الساس التحتاني

ورد على سائله وهو بالمنيعة قائلاً له:

أنا من لغواط مانيشي منا
بسوالك فكرتني هاضولي لعلال
لغواط اللي جابميزو شرقينا
واللي ناسو عايشة همة ودلال[13].

ونجده كذلك يقول شعرا يمدح فيه رجالا ونساءً منهم فاطمة الزهراء فرحات[14] حيث يقول:

قالوا لي فيها عوايد مشكورين

قالوا لي فيها الظنة والثمرة

نفخر فطيمة بتياق سلاطين

تتخبل في ريشها عارم حره

ويمدح الباشاغا جلول الذي كان في حماه كما ذكر لنا الأستاذ بديار بشير حيث يقول:

يابشاغا لا تخافش م الحساد

شيخك يا جلول برمانه ناجح

راه علامك ناصره مولا بغداد

مولا القبة العالية نوره ساطع

ويمدح كذلك أُناساً آخرين بقصائد جاءت في ديوانه، ومن هؤلاء لالة دخة وخديجة بنت عبد الله الحويضية اليعقوبية كما جاء على لسان الأستاذ بشير بديار في كتابه "عبد الله بن كريو حبه شعره وحياته"، كما أنه نظم في الشعر الديني وذكر الرسول محمد صلى الله عيه وسلم وأولياء الله الصالحين وهذا ما نجده جليا في شعره حيث يقول في قصيدة "يالحرات السكات"

يالحرات السكات

بركوا الهدرة بالحدثات

أتلهاوا بالصلاة

على نبينا صاحب الآيات

محمد الأمين

جابه لنا رحمن ربّ حنين

منور الجبين

من يوصلهـ في درجتهـ هيهات

شفيعنا ياسين

ينجينا في يوم واعر شين

كما أنه أعجب بالاختراعات الحديثة آنذاك فقد كتب قصيدة يصف فيها براعة هذه الاختراعات ومن بينها السيارة وهذا لَمَّا رحل إلى العاصمة فشاهد تلك الاختراعات فأعجب بها وهذا حسب الروايات المتواترة عن ابن كريو حيث يقول:

هذيك اللّي جات تمشي بكياسة

من الابعاد مكلفة تربي الأوطان

ذيك الطومبيل قصتها قصة

كي تطابق في الوطاعراديان

إذا خرجت من مزاب على الخمسة

الستة غيراش تصفى بريان

ياركبها في الضحى شوف المسى

توصل للمطلوب متنزه شرمان

وبهذا نجد ابن كريو قد طرق كل الأغراض الشعرية المعروفة في الشعر العربي القديم إلى أنها جاءت في قالب شعري عامي قريب من الفصحى يريد الشاعر من خلالها إيصال مبتغاه وآلامه وأحاسيسه إلى الطبقة العامة التي تفهم عاميته، فهو يعايشهم ويخالطهم ويقضي جل وقته معهم، بل هو واحد منهم فهذا ما وجب عليه أن يخاطبهم بلغة على قدر مستواهم حتى لا يصعب عليهم فهمه، غير أن هذا لا يعني أن ابن كريو بعيد عن النظم الفصيح، بل هو في نظري جدير به وقادر عليه فهو متمكن من اللغة العربية الفصحى ودليلنا في ذلك أشعاره التي أستلهم بعض ألفاظها ومعانيها من الشعر العربي القديم، كما أن شعره ينبئ عن مطالعته للكتب في شتى المجالات العلمية، ونحن نعرف أن هذه الكتب مكتوبة باللغة الفصحى والقارئ لها يجب أن يتقن اللغة العربية الفصحى، كما يجب عليه كذلك أن يكون على إطلاع واسع على العلوم المدونة في هذه الكتب كالفلسفة والمنطق والفلك والطب والحكمة، وهذه كلها لمسناها في شعره، هذا بالإضافة إلى توليه لمهام القضاء كباشا عدل وفي رأي لا ينال هذه المرتبة إلا متمرسا على القوانين والأحكام ومتمكن من اللغة العربية وإن لم نقل اللغة الفرنسية لأنه كان موظف تحت إشراف السلطات الفرنسية وهذه السلطات لا تكلف جاهلاً للقوانين وعديماً للثقافة والغير متمكن من اللغة بهذه الوظيفة الحساسة جدا.

فابن كريو حفظ القرآن ودرس علومه وتمرس على اللغة ونهل من الشعر العربي القديم إذ نجده يذكر قيس ليلى في شعره وهذا التضمين لا بد أنه يعني إطلاع ابن كريو على شعر قيس وغيره. المهم أن شاعرنا يعتبر من فحول الشعراء الكبار، باعتراف كل أقرانه الذين عاصروه، هذا بالإضافة إلى أن أغلب المطربين الكبار تغنوا بشعره نذكر من بينهم رابح درياسة، وخليفي أحمد، وعبد الحميد عبابسة، وعيسى الجرموني، والشيخ حمادة...

أما البناء الشعري للغة شعره، فهو جديد دائما، لأنه جاء تحقيقا لرغبة الواقع الذي يطمح إليه كل جزائري والذي يتمثل في إيجاد لغة فنية جديدة، تمتزج فيها صفات العامية والفصحى معا، وقد وفق في ذلك ونجح نجاحا كبيرا جيدا لو سار الشعراء في هذا الاتجاه[15].

الهوامش:

[1]- مصطفى حركات، الهادي إلى أوزان الشعر الشعبي، ط1، دار الأفاق، 2007، ص:16.

[2]- محمد المرزوقي، الأدب الشعبي، ط1، الدار التونسية للنشر، 1967، ص: 51

[3]- نعيمة العقريب، قصيدة حيزية، -دراسة تحليلية – ط1، منشورات الفيروز للانتاج الثقافي، 2009، ص:66.

[4]- نفسه، ص: 67.

[5]- أحمد الأمين، صور مشرقة من الشعر الشعبي، ص:120

[6]- نفسه، ص:120

[7]- البشير بديار، ابن كريو حياته حبه وشعره، ط1، مطبعة بن سالم، الأغواط، 2009، ص: 23

[8]- إبراهيم شعيب، التوخي لجمع أشعار عبد الله التخي – ديوان ابن كريو-ط1، مطبعة السلام، الجزائر، 1998، ص: 54.

[9]- البشير بديار، ابن كريوحياته حبه وشعره، ص:59.

[10]- أحمد الأمين، صور مشرقة من الشعر الشعبي الجزائري، ص:182.

[11]-نفسه ص: 182

[12]- البشير بديار، ابن كريو حياته حبه وشعره، ص: 146.

[13]- ابراهيم شعيب، التوخي لجمع أشعار عبد الله التخي – ديوان ابن كريو-ص:20

[14]- البشير بديار، ابن كريو حياته حبه وشعره، ص:177.

[15]- أحمد الأمين، صور مشرقة من الشعر الشعبي الجزائري، ص:207.